التَّهويد الثقافي لهاني فحص: مسائل للنقاش

الصِّراع الثَّقافي

يثير كتاب «التَّهويد الثقافي»، للسيِّد هاني فحص، مسائل عديدة تحتاج إلى نقاش. يأخذ هذا النِّقاش أهميَّة خاصة في هذه المرحلة من التاريخ التي تُفتتح بمؤتمر للسلام... إذ إنَّ الصراع الثقافي، في هذه المرحلة، وما يليها، سيكون الجانب الأهم على المدى الطويل. وهذا ما يقرِّره مؤلِّف الكتاب، في مقدمته، عندما يقول: «إنه زمن الصدام الشامل بين الإسلام واليهودية: المزوِّرة والمزوَّرة...».

يستند المؤلف، في تقرير ما يذهب إليه، إلى مؤيِّدات عديدة منها قول ناحوم غولدمان، الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي في كتابه: «وإلى أين تمضي اسرائيل؟»:

- «وحين يستتبُّ السلام، فإنَّ الجانب الثقافي لهذا التعاون، يمكن أن يصبح حاسماً على المدى الطويل. وبذلك تصبح «اسرائيل» جزءاً من الشرق الأوسط وقطاعاً من الشعب اليهودي في العالم العربي كله».

من المؤيِّدات تلك، كما يضيف المؤلِّف، توصيات لجنة التطبيع الثقافي التي عبَّرت عن ضرورة مراجعة البرامج التعليمية بشكل مباشر في الدُّول العربية وتعديلها، بغية إنشاء جيل جديد من العرب و«الاسرائيليين» يختلف عن الجيل السابق.

إن قضية في مثل هذه الأهمَّية تقتضي، كما جاء في مقدِّمة الكتاب، وكما

نرى أيضاً، أن يكون نقاش مسائلها جدِّياً وبعيداً عن المجاملة. وهذا ما سوف نحاوله لدى مقاربتنا، في ما يأتي، بعض المسائل التي يثيرها الكتاب.

عدوانيَّة الغرب

يتساءل المؤلِّف، وهو يعرض مسألة عدوانية الغرب: طبيعتها ومصدرها:

- «من أين أتت الغرب عدوانيته حتى يكون قاسياً ومدمِّراً ومموَّهاً هكذا؟».

ويجيب: «لو وضعنا الاحتمال التالي: عدوانية الغرب يمكن أن تكون إحدى أبرز علامات بؤسه، وانصياعه لعملية تخريب أوسع وأعمق وأعقد وأعرق... ويمكن أن يكون هذا الانصياع قد بلغ من القسوة حدّ أنَّه أصبح بعداً تكوينياً في بنية الغرب... لو وضعنا هذا الاحتمال، ألا يكون مدخلاً إلى وضع الأمور في نصابها والخلاص من مراوغة وإغراء الأجوبة السَّهلة التي تعقِّد الأسئلة وتغري بالكسل والامتثال؟».

لا أريد، في نقاش هذا الاحتمال، البحث في مسألة «تسلُّل اليهودية إلى المسيحية وتخريبها، منذ بولس الرسول وحتى أيامنا». وهذا ما يراه المؤلِّف سبباً للتكوين العدواني عند الغرب، وإنما أريد العودة إلى مرحلة تاريخية عرفت أوَّل اتصال حضاري بين المسلمين: عرباً وموالي من البربر وسواهم والغرب، وكان هذا الاتصال ذا أهمية تاريخية كبرى على كل المستويات، عنيت مرحلة وجود المسلمين في الأندلس.

كان هذا الاتِّصال مثمراً حضارة متقدِّمة طوال قرون، وطالما بقي المسلمون هم الأقوى، ثم غدا ذلك الاتصال «محاكم تفتيش» نعرف هول ما ارتكبت عندما قُيِّضت للغرب قوة، وبخاصة بعدما طوَّر استخدام البارود. وتلت محاكم التفتيش غزوات صليبية عانت منها بلدان العالم الإسلامي قروناً. ما يدخل في صلب المسألة التي نناقش هو أن محاكم التفتيش، في الأندلس، نالت من المسلمين واليهود معاً. وهذا يعني أن الغرب، سعى إلى تلبية مصالحه، انطلاقاً من طبيعة استعماريَّة لا علاقة للتوراة المزوَّرة والمتسلِّلة إلى الغرب بها، وإنَّما كوَّنتها هذه المصالح، فأقام محاكم التفتيش في الأندلس،

وجرَّد الحملات الصليبية في ما بعد، واستعمر في مرحلة تالية، وهو يواصل سياسة إبقاء معظم بلاد العالم أسواقاً ومزارع في هذا العصر، من طريق منع إقامة مجتمعات منتجة في ما يسمَّى دول العالم الثالث.

هذا ما أريد للصهيونية أن تكون إحدى أدوات تنفيذه في الوطن العربي، وقد حقَّقته طوال عقود من السنين. واليوم في ظل النظام الدولي الجديد، يراد لها أن تؤدِّي وظيفة أخرى في خدمة الغرب.

إن محاكم التفتيش في الأندلس أقامها الغرب. وكانت البداية في سعيه إلى تحقيق سيطرته وتحكُّمه بمقدرات البشر وثرواتهم، وهو، في ذلك، ينطلق من مصالحه، وفي مسار ترسمه هذه المصالح التي تقضي ببقائه منعَّماً متفوِّقاً إلخ... من طريق استغلال خيرات الشعوب: طبيعية وبشرية.

الصهيونيَّة واستيطانها في فلسطين

هذا الفهم لطبيعة عدوانية الغرب يقودنا إلى مناقشة مسألة ثانية، وهي مسألة الصهيونية واستيطانها في فلسطين، في محاولة للإجابة عن السؤال الآتي: هل كان الغرب في خدمة الصهيونية أو أن استيطان هذه الأخيرة في فلسطين كان وليد التقاء مصالح استطاع الطرفان الاستفادة منه على أكمل وجه؟

تقتضي الإجابة عن هذا السؤال شيئاً من التفصيل في مراجعة لبعض الحقائق المعروفة. يستند اليهود، في دعواهم، إلى خرافة أرض الميعاد وشعب الله المختار الذي تقوم علاقته بإلهه على أساس وعده إياه بالأرض، وقد جاء في التوراة على لسان كاتبها: «لأن الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد». ويحدِّد كاتب التوراة الأرض الموعودة «من أرض مصر إلى النهر الكبير: الفرات». ويتوسَّع الكاتب، في مكان آخر من التوراة في هذه الحدود، فيجعلها «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلَّمت موسى»، وهذا ما يتبَّناه بن غوريون، عندما يقول: «حدود دولتنا حيث تصل أقدام جيشنا».

هذا ما تريده الصهيونية مستندة إلى ادِّعاء توراتي مزوَّر. ويريد الغرب، انطلاقاً من طبيعته الاستعمارية، ومنذ تكوُّن تلك الطبيعة، شَطْر الوطن العربي

شطرين، من طريق استيطان شعب غريب يحول دون وحدته ويعمل على استنزاف قدراته، وقد تجلَّى ذلك، كما يذكر المؤلِّف في أحد هوامشه، في دعوة نابليون لليهود عام ١٧٩٩، وعرض بريطانيا عام ١٨٢٤، وعام ١٨٣٧ على أثر محاولة محمد علي باشا توحيد المنطقة الخطرة والغنية. وكان المؤتمر الاستعماري الذي عقد عام ١٩٠٧، وعرف بمؤتمر «بيرمان» صريحاً في ذلك؛ إذ رأى «أن الخطر الذي يتهدَّد أوروبا يكمن في المنطقة القائمة بين طنجة وخليج البصرة، لأن هذه المنطقة تسكنها أمة تتمتَّع بكل مقوِّمات الوحدة، ولها تأثير ثقافي واسع في أفريقيا وآسيا، إضافة إلى الثروات التي تملكها».

هل كانت الصهيونية أداة الغرب في تمزيق تلك المنطقة، ونهب ثرواتها، واستنزاف قدراتها ومنع نموها الخ... ؟ نعم، وهل كان الغرب، في سبيل تحقيق أهدافه وسيلة تحقيق دعاوى الصهيونية، في «أرض الميعاد» وإقامة دولة لليهود؟ نعم، هذا صحيح أيضاً.

إنه التقاء مصالح بين الغرب الناشط للاستعمار، وبين الصهيونية الطامحة إلى إقامة دولة «اسرائيل»، وفي مرحلة هذا الالتقاء تغيَّرت صورة اليهود في نظر الغرب، ومن ثم في الأدب الغربي؛ وإذا التقت المصالح، تمَّ توظيف الكيان الاستيطاني أداةً في خدمة مصالح الاستعمار الغربي.

اليهودي في الأدب الغربي

وهنا نطل على مسألة ثالثة، عنوانها: الرؤية إلى اليهودي في الأدب الغربي، متى تغيَّرت؟ ولماذا؟

يتساءل المؤلف، في ختام تقصِّيه للأثر اليهودي في الفكر والأدب الغربيين: «كم يبقى، في النهاية، عدد المفكرين والأدباء والفنانين الذين تركوا، وما زالوا يتركون آثارهم في ثقافة الأمم في عصرنا من غير اليهود؟». ويقول في مكان تالٍ: «لم يكن صدفة ذلك الظهور المتألِّق لليهودي في آداب الغرب بعدما ظلَّ في هذه الآداب إلى ما قبل عصر الصناعة بوصفه تجسيداً للنذالة والسفالة واللؤم، كما في مسرحية اليهودي المالطي لكريستوفر مارلو ومسرحية «تاجر

البندقية» لشكسبير». ويضيف: «بيد أنَّ صورة اليهودي أخذت بالتغيُّر في الآداب الأوروبية منذ أواسط القرن الثامن عشر، أو منذ أواخره، وبوجه خاص منذ ظهور مسرحية عنوانها «اليهودي» عام **١٧٩٤** لكاتب بريطاني يدعى كمبرلاند».

إزاء ما ورد، ألا يحق لنا أن نسأل: ما سبب تغيُّر صورة اليهودي في هذه المرحلة بالتحديد، وأين تبرز أهمية اليهود التكوينية في الغرب قبل عصر الصناعة، طالما أنَّ اليهودي كان حتى تلك المرحلة «شيلوك» رمز النذالة والسفالة الخ... ؟

الحقيقة أن صورة «شيلوك» تغيَّرت بفعل التقاء المصالح في عصر الصِّناعة، فقد دفع ذلك العصر إلى البحث عن مصادر المواد الأولية وأسواق تصريف المصنوعات، حيث تمَّ تبادل الخدمات بين اليهود المتمولين والصناعيين، وحيث نبتت الصهيونية، ووظِّفت في خدمة الغرب الاستعماري، مستفيدة من مزاعم توراتية.

يقول المؤلف: إن هذا التحوُّل/المنعطف في الفكر والأدب الأوروبيين الذي حدث نتيجة عوامل تاريخية عامة يراد له أن يحدث على مستوى الفكر والأدب في البلاد العربية والاسلامية، ويرى أن «أغلب قطاع الحداثة الأدبية جاهز تكوينياً لتلقِّي التأثير وإحداث الانعطافة... والباقون لهم أبواب أخرى للمساهمة ضمنياً في إنجاز المطلوب، طالما أن غاية الانعطافة هي إزاحة الاسلام، وهو هم مشترك للجميع. هذه هي الطُّموحات التي أشارت إليها بعض نصوص كامب دايفيد، وما ترتَّب عليها من فعاليات لاحقة...».

غير أن الذي استجد، يضيف المؤلف، «هو الحالة الشعبية الاسلامية المشبعة بثقافة، إسلامية ممانعة، والتي لم يستطع قطاع الحداثة في الفكر والأدب والفنون أن يمسَّها بتبديل أو تحويل...».

التحوُّل المراد تحقيقه

الحقيقة أنَّ هذا التحويل/المنعطف يراد له أن يحدث على مستوى الفكر والأدب في البلاد العربية والإسلامية، والمحاولات في هذا الصدد عديدة

وحثيثة، وقد بدأت منذ مدَّة طويلة، ونكتفي بالإشارة إلى حركات فكرية وأدبية كانت ذات ارتباط بمنظمات ثقافية عالمية تموِّلها المخابرات الأمريكية. هذا معروف، قد حدث ولا يزال يحدث، متغطِّياً باسم الحداثة. ونحن، إذ نعي ضرورة كشف الأغطية وفهم طبيعة مختلف الحركات، نقول بضرورة التمييز الدقيق بين حركة وأخرى وعدم الوقوع في إطلاق الأحكام العامة، فقطاع الحداثة قطاع عريض جدَّاً وشديد العمومية، وهو تجلِّي حركة تاريخية في مرحلة تاريخية، وليس من الموضوعية والدقَّة أن نشمله بحكم عام قد يصدق على ظواهر تلحق نفسها به، من دون انتماء حقيقي إلى الواقع الحديث الذي تدَّعي تجسيده، والتعبير عنه، كما أنَّنا نرى أن التحويل والتبديل ينبغي أن يحدثا باستمرار ولكن في اتجاه سليم، وليس شيء يمنع الثقافة الشعبية الاسلامية من أن تستمر في التحوُّل بتحوُّل الحياة، طالما توافرت لها تربة صالحة وبقيت جذور تنبت فيها، وتبرعم وتزهر وتثمر.

فالتحوُّل سَّنة الحياة...

خذ الشجرة مثلاً، تحيا أوراقها وأزهارها وثمارها دورة عمر، وتعود إلى التربة لتدخل في تكوينها، لكن الشجرة لا تبقى جرداء، إنَّ دورة جديدة لا بد آتية في كل موسم خصب ما دام للشجرة جذور تحتضنها تربة صالحة.

المسألة، إذاً، مسألة تربة وجذور، وليس من جديد يحدث من دونهما فلنعن بهما، هذا هو الهم الأساس في هذا العصر الصعب.

الحداثة

إن مفهوم الحداثة مفهوم إشكالي يثير جدلاً على مختلف الأصعدة، وهو في رأينا يشير إلى حركة الواقع وتجلِّيها الفكري والأدبي وسوى ذلك. من هنا أهمية الدقة والجدِّيَّة في رصد هذه الحركة ووصف ظواهرها، وكشف غير الأصيل التابع منها والحكم المعلَّل عليه في ضوء مفهوم للحداثة تتم بلورته، ونحن في هذا نلتقي مع المؤلِّف في كتابه الآخر «مشروعات أسئلة...»، حين يقول: إنَّنا مدعوون، أو مضطرون، إلى بلورة مفهوم جديد للحداثة.

إن الحداثة الفكرية والأدبية المنبثقة من الواقع الحديث المعيش، والتي تعاني الواقع وتعاينه، وتحاول الإجابة عن أسئلته، بغية النهوض به وتطويره إلى الأفضل ليست نقيض الأصالة، ولست بحاجة إلى إيراد الكثير من الأمثلة لأؤكِّد ذلك، فمن الأسماء التي تحضرني في هذا المقام أكتفي بذكر أسماء عدد من الروَّاد، من أمثال صلاح عبد الصبور وأمل دنقل وبدر شاكر السياب وخليل حاوي الخ... إنَّ هؤلاء روَّاد حداثة شعرية، وهم على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والفنية ينتمون إلى قطاع الحداثة الشعرية المنبثقة من واقعها والمحاولة الإجابة عن أسئلته.

إن الدَّفع باتجاه أن تكون الحداثة منبثقة، من عيش الواقع الحديث، هو المهمة الأساس في سبيل بلورة مفهوم جديد للحداثة، إضافة إلى مهمَّة أخرى لا تقلُّ أهمية عن الأولى، وهي كشف الحداثة الوافدة التي يقتصر عطاؤها على الصُّدور الاستهلاكي المبهور بالانتاج الغربي والساعي إلى احتذائه.

الحداثة اتجاهات وتيارات، فلنحاول معرفة أيها الرَّامي إلى التحويل/ المنعطف الأصيل المنتمي إلى واقعه: انبثاقاً وهدف تغيير وأيها الرامي إلى التحويل/المنعطف نحو التبعية التغريبية المختَرَقة أو المُختَرِقة نسيج الثقافة الأصيلة، والسؤال الأساسي يبقى:

ـ إلام تؤدِّي عطاءات هذه الحداثة أو تلك؟

هل تبدع الجديد الأصيل والحديث في آن، أو أنَّها تنجز المزيَّف الذي يحتذي انتاج الآخر، ويزعم أنه ملائم وموائم لنا؟

المهمَّة الأساس

الإجابة عن هذا السؤال، كشفاً نقدياً وإبداعياً، هي المهمة الأساس المنوطة بمثقَّفي الوطن العربي والعالم الاسلامي المنتمين إلى أهل ووطن، والذين لا يريدون للتحوُّل/المنعطف التبعي المخترق برؤيا الآخر ورؤيته أن يحدث ويسود. وهذه المهمَّة أشد إلحاحاً في أثناء مرحلة مؤتمر السلام، سواء أنجح هذا المؤتمر أم أخفق.

إشارة وتنويه

تبقى إشارة بسيطة إلى أخطاء فاتت المصحِّح، وآمل أن يتم تصحيحها في حال إعادة طبع الكتاب أعطي مثالاً على ذلك (في ص. ٥٨).

ولا يفوتني ختاماً أن أنوه بالمستوى الأدبي الراقي الذي تتميز به لغة المؤلِّف، فهذه اللغة، وعلى الرغم من استخدامها الجملة الطويلة أحياناً (كما في ص. ١٠)، تبقى لغة أنيقة جميلة ذات إيحاءات وظلال تشدُّ القارئ وتمتعه في آن.

❒ ❒ ❒